موسيقى

في لقاء مع «العربي الجديد»، يحدثنا الموسيقي وعازف العود السوري الشاب، شبلي سليم، عن تفاصيل إصداره الأول الذي يحمل اسم «موزون»، والأثر العميق للموسيقى الكلاسيكية المصرية وأعلامها على تفكيره واختياراته، رغم إقامته وعمله في النرويج منذ عام 2015

البحث عن القصبجي في شبلي سليم

هيثم أبوزيد

يقدم سليم وإنغر أعمالاً تمزج الموسيقى العربية بتلك الشعبية النرويجية (من الفنان)

حين هاجر الشاب السوري شبلي سليم من مسقط رأسه في محافظة السويداء إلى النرويج في عام 2015، حاول أن يستمر في جمعه بين دراسة الهندسة المدنية التي قطع معها شوطاً في جامعة دمشق، واهتمامه بآلة العود. لكن لم يطل به الأمر حتى أدرك أن آلته الأثيرة لا تقبل شريكاً؛ فقرّر التفرغ التام لدراسة الموسيقى في جامعة مدينة هامر. خلال سنوات الدراسة الأولى، كان سليم يصارع وجدانه محاولاً الانسلاخ التام عن الموروث الموسيقي العربي، ظناً منه أن القطيعة بينه وبين الماضي تسهّل له طريق الانفتاح الثقافي والفني، وتعينه على اكتساب خبرات أعمق بالمنتج الموسيقي الغربي. لكن هذا الصراع الوجداني والفكري تبدّد أمام إعادة اكتشاف الأبعاد العميقة للموسيقى العربية، ووضع اليد على جوانب الثراء والجمال والحرية التي تمنحها تلك الموسيقى لمن يعطيها الجهد والوقت والاهتمام. خلال رحلته الفنية، تعرف سليم إلى عازفة الكمان النرويجية إنغر هانيسدال، التي شاركته الاهتمام بالموسيقى الشرقية وإيقاعاتها، ليثمر التعاون بين الشاب السوري والفتاة النرويجية إصداراً بعنوان «موزون»، يضم 12 مقطوعة موسيقية، تستلهم أفكاراً وارتجالات وتوقيعات من أعلام الموسيقى في مصر، عبر حوار متنوع بين العود والكمان. في لقاء مع «العربي الجديد»، يكشف شبلي سليم عن تفاصيل إصداره الأول، والأثر العميق للموسيقى الكلاسيكية المصرية وأعلامها على تفكيره واختياراته.

نشأ سليم في أسرة تهتم كثيراً بالفنون عموماً، وبالموسيقى خصوصاً. والده مستمع جيد، يعزف أحياناً على العود، ويولي عناية فائقة لتراث المنطقة التي ولد وعاش فيها. يقول سليم: «من خلال والدي، تعرفت إلى العديد من الأنماط الموسيقية العربية، ووجدت في العود مادة دسمة للبحث، بقدر ما وجدت فيه من السلوى والأنس. لم أكن راضياً عن طرائق تعليم العزف الشائعة خارج المعاهد الرسمية ذات الطابع الأكاديمي، فشرعت في تعلم الآلة بنفسي، وكانت أذني وما أسمعه أستاذي الوحيد خلال تلك المرحلة».

يضيف: «يمكن أن أقول إن محصول الاستماع لكون عندي هوية موسيقية أشعرني أن «التقنية» هي العقبة التي تحول بيني وبين التعبير عنها. انقطعت عن الآلة فترة بسبب استقراري في دمشق حيث كلية الهندسة، وظل امتعاضي من الدراسة والمكان يتفاقم، إلى أن قرّرت الهجرة وخوض تجربة اللجوء بسبب تردي الأحوال في عموم سورية وانعدام أي أفق مستقبلي. وبعد سنوات من التفرغ لدراسة الموسيقى، يمكن أن أقول إن تحصيلي كان متنوعاً، لأن مصادر تأثري كانت متعددة، ولكن من المؤكد أن الأثر الأكبر في تكويني يعود إلى المدرسة المصرية التي كانت دوماً مصدر إلهامي».

في عام 2020، بدأ سليم دراسته الأكاديمية لآلة العود مع العازف والمؤلف والمحاضر الأكاديمي أحمد الخطيب. يقول: «هو موسيقي متميز ترك أثراً عميقاً في نفسي وتفكيري وساعدني جداً على الانفتاح موسيقياً ونغمياً. وفي الأشهر الأولى لدراستي، شعرت بأنني منطلق بقوة نحو عوالم متعددة، عزفنا موسيقى الـPop والـNorwegian folk، وكنت مصراً على أن أعزف العود باعتباره عوداً لا آلة أخرى.

يتابع: «في السنة الثانية لدراستي مررت بفترة إحباط، وبدأت أشعر بأنني في مكان ليس لي. كنت أشعر بالنقص، وبأن ما أعزفه غير مفهوم. نصحني أستاذي الجامعي بأن أوقف دراستي لفترة حتى أتمكن من إعادة تنظيم أفكاري. ما أتذكره، أنني عدت إلى الجامعة بتصميم على عزف ما أعرفه وما أملكه من مخزون شرقي من دون تحريف فيه أو تغيير، كأن المونولوج والدور والطقطوقة والتقاسيم سياج الأمان الذي يحمينا من ضياع الشخصية وفقدان البوصلة والهوية».

حديث سليم عن المدرسة الموسيقية المصرية يثير سؤالاً مشروعاً عن أهم الشخصيات التي تأثر بها. لا يتردد العازف الشاب في الإجابة، فعنده الموسيقي والملحن المصري محمد القصبجي هو نموذج الإلهام والإعجاب الأول. يضيف: «عشقت القصبجي، وريشته، وأسلوبه، وتعلمت منه كيف أصل بالعود ليكون «فصيحاً» معبراً عن هويته وبيئته. كان القصبجي بالنسبة إلي فيلسوفاً وصاحب فكر. تأثرت به، ولا أتورط فيه بمحاولة تقليده، ولا الاستنساخ الحرفي لما يفعله، فأنا لست القصبجي، ولا يمكن لأيّ إنسان آخر أن يكون القصبجي. ومنذ خمس سنوات أو أكثر، بدأت أستمع إلى تسجيلات القصبجي بكثافة، درست مونولوجاته التي لحنها لأم كلثوم، ودرست تقاسيمه وحاولت تقليدها، لكن سرعان ما اكتشفت أنني أثرثر كثيراً على العود، وأن ما أعجبني في القصبجي هو بلاغة قوله، وقدرته الفائقة على التعبير بأقل عدد من الحروف الموسيقية. أدركت حينها أن ما أتعامل معه ليس كسائر ما عزفته أو تمرنت عليه، وكان درس القصبجي الذي حصلته يجب عليّ أن أتعلم الفِكر ثم الموسيقى ثم التقنية».

> كان يحاول الانسلاخ التام عن الموروث الموسيقي العربي
>
> أسّس مع عازفة كمان نرويجية فريقاً اسمه «تخت توين»

يردف: «بسبب القصبجي، جلست ساعات طويلة أسمع المؤلفات والتحاميل التي تركها. كنت مذهولاً وأنا أراقب حديثه المشترك مع العناصر الموسيقية المختلفة في الفرقة، وكيف كان مُدركاً تمام الإدراك لماهية آلة العود ونوع صوتها وأبعادها. كانت قدرته فائقة على التحكم بأبسط أصوات الآلة. وكلما ابتعدت عن القصبجي، وجدت نفسي أعود إليه. أعود لأنظر إلى ما تركه بعين جديدة، وكلما ارتفعت قدرتي التقنية، وجدت أن فهمي للرجل أصبح أعمق وأقوى. كان القصبجي صاحب فضل عليّ، لا موسيقياً فحسب، بل أكاديميا وفكرياً وحتى نفسياً».

بالمصادفة، تعرّف شبلي سليم إلى عازفة الكمان إنغر هانيسدال التي التقاها في أحد مقاهي أوسلو عام 2017. وكانت المفاجأة أن العازفة النرويجية درست الموسيقى الشرقية في بيروت. حدثها سليم عن تأثره بالقصبجي والسنباطي وعبد الوهاب وأم كلثوم، ففاجأته مرة أخرى باهتمامها وتأثرها بعازف الكمان الشهير سامي الشوا. كان هذا التوافق الفني دافعاً إلى التعاون الذي كان مظهره الأول إنشاء فرقة موسيقية باسم Takhat Tøyen أو «تخت توين»، وهي المنطقة التي انتقل إليها الشاب بعد انتهاء دراسته بمدينة هامر.

قدمت الفرقة أكثر من عرض موسيقي قوامه أعمال القصبجي وعبد الوهاب وأم كلثوم والقوالب الآلية الكلاسيكية.

يقول: «من خلال هذه العروض، اكتشفنا منطقة أخرى مشتركة بيننا، وهي هواية الارتجال واللعب بالإيقاعات، والجملة القصيرة التي تُعاد بأساليب مختلفة. اكتشفنا مركزية «الوزن الإيقاعي» في ما نقدمه. وكل هذا كان إرهاصاً لإصدارنا الأول، الذي اخترنا له عنوان «موزون»، تعبيراً عن تقديرنا لهذا النوع من الارتجالات والتقاسيم الإيقاعية».

من خلال المؤلفات التي تضمنها الإصدار، حاول سليم وإنغر استعراض الأشكال الآلية الكلاسيكية الشهيرة: السماعي والدولاب والتقاسيم الموقعة والمحاورة بين الآلات، وحرصا أيضاً على التنويع في الموازين الإيقاعية، فيجد من يستمع إلى مسارات الإصدار إيقاعات السماعي الثقيل، والمصمودي، والهجع، والوحدة.

يوضح: «حاولنا أن نستعرض عدة أجناس مقامية في كل مسار، كذلك كان اختيار النغمة أو الدرجة التي تُعزف منها مهماً. ومثلاً، عزفنا قطعة «رقص» من نغمة العشيران (لا قرار) بسبب ما تعطيه من مساحة على العود والتشيلو، واخترنا أن يكون السماعي وقطعة «تمايل» على نغمة الراست (دو). وقصدنا فيها أن نبني تسلسلاً تصاعدياً للأجناس، ابتداءً من الراست وختاماً بالبياتي على النوى.

يتابع: «في قطعة «ترحال»، كنت متأثراً بشدة بارتجالات القصبجي التي تسبق أو تتخلل بعض ارتجالات السيدة أم كلثوم، وكنت مولعاً بالارتجال على الوحدة. كنت أشعر بأنه ارتجال عربي أصيل يسير في تصاعد نغمي مقنع».

العثور على مقطوعات مفقودة... موسيقى ستُسمع لأول مرة

علي موره لي

في ألمانيا منتصفَ القرن التاسع عشر، اعتاد جبّانٌ كلما خلا من الزبائن، أن يدخل مستودع دكانه في مدينة لايبزيغ، بغرض توضيبه وتنظيفه. أثناء واحدة من الجولات، عندما كان يُخرج من أحد الصناديق القديمة لفافات ورقٍ مستعمل، كان قد اشتراه للفّ ما يكيله من الجبن واللحم المقدد، وقعت عينه على حزمة مدوّنات موسيقية عتيقة. حلّ عقدتها، أخذ يتفحّص محتواها، ليجد سلسلة مقطوعات لآلة «الكيبورد» (سلف البيانو الأول) وبعض الأعمال الغنائية الكنسيّة من فئة «كانتاتا».

كانت النوتات قد خُطّت بعناية فائقة وبريشة أنيقة، تذيّل كلا منها توقيعٌ يحمل اسماً بدا للجبّان، الذي وإن لم يكن مُلمّاً بالأدب والفن، مألوفاً، إذ كان لواحد من بين أعلام الموسيقى الكلاسيكية الكبار على مرّ التاريخ، الألماني يوهان سباستيان باخ (1685-1750).

لم يكن باخ في حياته يوماً موسيقياً مغموراً ليُعثر على أعماله بين ورق اللف السمانة، بل من بين الأشهر في عصره على نطاق القارة الأوروبية كلها. بعد أن رحل عن عمر 64 عاماً، إثر مضاعفات عملية جراحية أجريت عليه أملاً في إصلاح بصره، اقتُسم إرثه الموسيقي بين كارل فيليب، أحد أبنائه التسعة، الذي أصبح بدوره مؤلفاً معروفاً، وأرملته آنا مجدلينا، التي أثرت بيع حصّتها في مزاد، ذهب من نصيب أحد الباحثين الموسيقيين المرموقين، جورج بوشاو، الذي وهب ابنُه هرمان بعد رحيل الأب مجموعة باخ للمكتبة الملكية البروسية ببرلين سنة 1841. مرة أخرى في مدينة لايبزيغ، في شهر سبتمبر/ أيلول الماضي، كُشف النقاب عن مقطوعة موسيقية، ظلت منسيّة في دواليب مكتبة البلدية، بعنوان «سيريناد مقام دو ماجور» من أعمال مؤلف عبقريّ يُعد قريناً لباخ في عظمته وشهرته، النمساوي فولفغانغ أماديوس موتزارت (1756 - 1791). تكوّنت المقطوعة من سبع حركات صغيرة، وُضعت ألحانها لآلتي كمان وآلة كونترباص، ويُعتقد أنها تعود إلى فترة مبكرة من حياته، وإنّ ما من أُذنٍ سمعتها قط، غير أذنه.

تلك لم تكن المرة الأولى التي عُثر فيها على مدوّنة لموتزارت بعد رحيله بمئات السنين. وإن تُعدّ من أشهر مؤلفاته وأكثرها شعبية، فإن مدوّنة السوناتا رقم 11 لآلة البيانو لم تظهر إلى النور، بحركتها الرابعة والأخيرة والشهيرة، المعروفة بالروندو على الطريقة التركية (Rondo alla Turca) إلا في القرن الحادي والعشرين، تحديداً سنة 2014، بين محتويات أرشيف مهمل لإحدى المكاتب الوطنية في العاصمة الهنغارية بودابست.

قد ظلّ يُعتقد أن النوتة الأصلية للمقطوعة ذات الأنماط الإيقاعية الرشيقة الراقصة المستوحاة من أجواء البلاط العثماني، وكتبها موتزارت في سالزبورغ في النمسا سنة 1783، قد فقدت إلى الأبد، إلى أن أطلق أحد الباحثين المجريين حملة بحث واستقصاء لسنوات، كُتب لها أخيراً أن تُكلّل بالنجاح.

في حين أن بعض الأعمال الموسيقية قد جرت محاولة إخفائها عن عمد. ففي سنة 1911، رحل المؤلف النمساوي غوستاف ماهلر قبل أن يُنهي سمفونيّته العاشرة، التي آثرت أرملته آلما إخفاء مدوّنتها لسنوات طويلة، بدعوى أن العمل لا ينبغي أن يُقدّم ناقصاً أو أن يُتمّم بعد غياب مؤلّفه.

استغرق الباحثون الموسيقيون عقوداً استمرّت حتى ستينيات القرن الماضي، ليفلحوا أخيراً في إقناع زوجة المؤلف بإخراج المدوّنة من عهدتها، لتبدأ عملية جمع لاسكتشاتها وتنقيحها، ومن ثم طباعتها بغية أدائها وتسجيلها، لتنضم السمفونية العاشرة منذ ذلك الحين، إلى إرث ماهلر الموسيقي السيمفوني، المترددة أصداؤه داخل عروض الموسيقى الكلاسيكية في كل أنحاء العالم. أخيراً، ظهرت مقطوعة موسيقية أخرى للعيان، ظلّت منسية لقرنين من الزمان، يُعتقد أنها لم تُعزف قط، هذه المرة للمؤلف الرومانسي البولندي المشهور فريدريك شوبان (1810 - 1849)، إذ عُثر في متحف بمدينة نيويورك الأميركية على مؤلّف لآلة البيانو المنفرد بعنوان «فالس»، وذلك اسم رقصة جرمانية قديمة اشتهر شوبان بنظم الألحان على إيقاعها.

> بعض الأعمال الموسيقية قد جرت محاولة إخفائها عن عمد

عُثر في سبتمبر الماضي على مقطوعة لموزارت (Getty)

أذاعت شبكة بي بي سي الإخبارية النبأ، مرفقاً بعرضها مقطعاً مُسجّلاً من أداء الصيني لانغ لانغ، يتخلّله صوت من كشف النقاب عن المخطوط، مُدير العروض الفنية روبنسون مكليناّن، يسرد حينما رأى المدوّنة لأول مرة، كيف لفت انتباهه مباشرةً الشبه بين التدوين وخط يد شوبان، فصوّر النوتة بكاميرا محمولة وعاد بالصورة مسرعاً إلى منزله، ليفكّ رموزها الصوتية على آلته البيانو، ليتبادر إلى ذهنه على الفور فيما هو يعزف، أنه ربما يكون أوّل من استمع إليها بعد مؤلّفها.

بالإضاءة على تلك الآثار المنسية أو المخفيّة، يقع ضوءٌ آخر على دور التاريخ وعامل الصدفة والقدر إما في إبراز، أو في حجب أثر من الآثار، فضلاً عن دفع أحدهم ليغدو علماً من أعلام الأدب والفن والموسيقى.

في ظل قلّة الطلب على أعمال الموسيقى الكلاسيكية الغربية، يلجأ المنتجون والمسوّقون اليوم إلى البحث والتنقيب، بهدف العثور على كل ما يجذب الأسماع، إما من مؤلفات، سَهت عنها سجلات الذاكرة، أو عن مؤلفين بقوا مغمورين لسنين وعقود، وأحياناً لقرونٍ عديدة.